

الحلم الوردي

د. عبدالله رمضان - المغرب

فسفره أرهق نفسه وأضناها، وأرقه ألم البعاد
والفراق وأشقاء.

عندما جثمت الطائرة على أرض المطار، رأى
لافتات كبيرة معلقة في أعمدة عالية مكتوب عليها
بخط بنفسي في إطار وردي جميل عبارات:

مرحبا بجاليتنا العزيزة، حلتكم أهلا، ونزلتم
سهلا، ونحن في خدمتكم بعدا وقبلا.

وكان في استقبالهم خدم يطوفون بأكواب وأباريق
من الحليب، وآخرون يحملون أطباقا من التمر
والفواكه اليابسة، ووجوههم وُسمت عليها ابتسامة
عريضة ولطيفة تعبيراً لهم عن مدى ترحيبهم بهم
في أرض وطنهم.

أما موظفو المطار فقد ذللوا لهم كل الصعاب،
وبسطوا لهم مسطرة العبور والتفتيش وكلهم أدب
واحترام ووقار، ومن خلال شكلهم وهيتهم تبدو
علامات الحفاوة والاهتمام البالغين، يتنقلون من
مكان إلى آخر بكل نشاط وحيوية، وحركاتهم كانت
تومئ بلطافة الحياة ونضارتها.

بعد غيبة طويلة قضاها في تيه النسيان، عاد إلى
وطنه الحبيب الذي طالما سكن فؤاده وكيانه، ولم يغب
لحظة عن وجدانه وذنه، عشقه عشقا لا نظير له،
وأحبه حب الأمومة والأبوة.

عاد من رحلته الطويلة وكله آمال عريضة في
ملاقة ومعانقة هذا الوطن العزيز. كم كان يتمنى أن
يقرأ على صفحات كتابه ما كان يصبو إليه وتتشد
كل المجتمعات. يحب أن يرى بمقلتيه ما يبعث على
الارتياح والطمأنينة والأمان.

عاد وهو ينوء بحمل ثقيل من الماضي مازال
يعمل في صدره، ومخلفات تركه إرث بائد تضغط
على نفسه بجروحها واندمالاتها، وأمور أخرى من
شدة وطأتها وكثرة ذيوعها وانتشارها كان قد ألفها،
واعتاد احتمالها، وصارت شيئا عاديا وطبيعيا.

إن عبق تراب وطنه وبلده سرى في عروقه وتحل
في دمه، فصار يشعر أنه يحمل بلده بين ضلوعه
وجوانحه، وصار يقرأ مجده التليد في قلبه، وصفحات
فؤاده. كان يود أن يرى موطنه جنة فوق الأرض.



مكتوب عليها بخط كبير وبارز: مدينتك ترحب بك.. على امتداد الطريق كان المسافر يرتشف نسيم مدينته العليل، ويتناول بنهم شديد جمالها الأخاذ، ويفترف بيديه نضارتها وأريجها الفواح. وبين فينة وأخرى كان يسأل السائق: هل هو فعلا في مدينته وبلده؟ والسائق كان يستغرب من طرحه هذه الأسئلة مرات عديدة، حتى ظن أنه أركب معه شخصا غريبا عن البلد، وربما تكون هذه المدينة ليست وجهته المطلوبة.

حار السائق في أمر هذا المسافر، لكنه لم يكن يدري أن هناك أمورا لا يعلم عنها حقيقة، وليس بمقدوره أن يطلع عليها رجما بالغيب، لذلك كان يجد في صمته خير وسيلة لإخراص كل تهيؤاته وتساؤلاته. المهم عنده هو إرضاء الزبون، وجعله يسعد بأحلى الأوقات واللحظات وهو على متن سيارته.

عندما أشرفت السيارة على المدينة، أخذ المسافر يطل برأسه من نوافذها، وفي بعض الأحيان كنت تراه يكاد يخرج كل جسده منها، فقد بهرته مناظرها، وأذهله عمرانها وشكل هندسة مبانيها، وسحرتة حدائقها وروضاتها، وأدهشه انتظام شوارعها ونقاها ونظافتها، فقد بدت عروسا في ليلة زفافها. انتشى المسافر بهذه المظاهر الجميلة للمدينة، وطربت نفسه لذلك وطابت، ورددت أعذب ألحان مشاعرها، وغنت أشدى كلمات الروح والأحاسيس. ولما تراءت له مداخل المدينة عن كثب حسبها زهورا وورودا منتصبة في أبهى المدائن، وخيل إليه أنه يسير بين جنان الأندلس، أو غوطة الشام.

نزل من السيارة التي كانت تقله وتقدم بخطا حثيثة ونشيطة نحو منزل أسرته، وهو لا يعرف من أين سيبدأ الكلام مع أفرادها، فربما يكونون هم الآخرين قد تغيروا وتغير ما بهم، وتجسدت فيهم

كل من هناك كان يسعى جاهدا في خدمتهم وإراحتهم من وعاء السفر ومشقته، وإحساسهم بمشاركتهم ومقاسمتهم ألم البعاد والوحشة في ديار الغربة. ومما زاد ذهوله توظيف مكثف لآلات وأدوات وأجهزة إلكترونية متطورة جدا كانت تعمل بدقة مذهشة في تسيير وتيسير الأعمال وخدمات المسافرين.

كانت أرضية المطار تلمع نظافة، وجدرانه تتلألأ جمالا، ومرافقه تزدهي أناقة وتنظيما. وقد نصبت في كل ركن من أركانه باقات من الزهور والورود مختلفة الأشكال والألوان والرائحة.

لم يصدق المسافر ما تراه عيناه، وظن أن الطائرة قد أخطأت في الوجهة الصحيحة المرسومة لرحلتها. لأنه لم يعهد مثل هذه المراسيم اللافتة للنظر، وهذه الأشكال من التنظيم والاستقبال والجاهزية التي خلبت لبه، واسترعت اهتمامه. وفي داخله بدأت تتفشع سحب الغربة والصورة السوداوية التي كانت مترتبة على وجدانه، وجاثمة في صدره.

بعد خروجه من فضاء المطار، ركب سيارة أجرة مريحة وجميلة الشكل، تعبق منها رائحة طيبة ومعطرة، وسائقها كان شخصا محترما، يرتدي زيا أنيقا، ولسانه شهد يقطر عسلا وحلاوة ولطافة، حيث لا يناديه إلا: سيدي الفاضل، طلباتك أوامر، أنا في خدمتك..!

سار في اتجاه الطريق الرئيسي المؤدي إلى المدينة، وبينما هو كذلك، لاحظ أن الطريق قد اتسعت وصارت تستوعب خطوطا كثيرة لسير السيارات بدل خط واحد كما كانت من قبل، وعلى جنبات الطريق انتصبت أشجار ونباتات كثيرة ومتنوعة مصطفة بروعة كأنها وقفت تنتظر غائبا عزيزا لدى عودته، ووضعت إلى جانبيها لوحات كبيرة مزركشة بالألوان

وجعلته يعتلي الصدارة في مصاف الدول الرائدة والطليعية في مختلف المجالات.

لقد رأى العدل يعم البلاد... والناس أصبحوا متساوين كأسنان المشط، فأُنفَص المظلوم، واقتص من الظالم، وأعين الضعيف، وأخذ بيد الفقير، وانقرضت رموز الفساد، وامحت مظاهر البؤس، وحُفِظت حقوق أفراد المجتمع، واحترمت كرامته، ووُقِر له العيش الكريم، وصار الجميع يعلم ما له وما عليه من حقوق وواجبات.

ووجد الأمن والأمان يدبان فوق أرض وطنه، والسلام والاستقرار يشقان الطريق في كل الأرجاء، وساد بين الناس الفضيلة، وشاعت أسباب التعاون والتسامح والتآخي والتضامن والتكافل والتآزر. لم يعد في ظل هذه القيم والمكارم الأخلاقية بواعث للتطاحن والصراع، وحب الذات والأنا المفرطة. لقد تمثل له بلده كالمدينة الفاضلة أو المدينة المثالية، فانتزع منها أسباب الاندحار والهلاك وشق الصفوف، والعبت بمصالح البلاد والعباد.

وبيئنا كان في أوج سعادته امتدت

إليه يد زوجته فأيقظته من سباته العميق،

فتبعثرت أحلامه الوردية على وقع صوتها الخشن، وهي تلح عليه بالنهوض، لأنه قد تأخر عن عمله، وتحذره من أن يطرد أو يفصل عنه، وذكرته أن كوخه الصغير يحتاج إلى إصلاح فموسم فصل الشتاء قد اقترب أوانه، ومصاريف الأولاد الدراسية على الأبواب، والديون المذلة مازالت تنتظره لسدادها.

عبس في وجه زوجته وقال في حسرة وحنق: يا له

من حلم وردي جميل! ■

معالم الحضارة الإنسانية الراقية التي تشدها كل الأمم والمجتمعات.

تخيل مرور الأيام وهو على هذه الحال يتقلب في خمائل هذه النعم الوردية، ويرفل في الفيوضات الأريجية، لا يعرف طعم الاستقرار، ولا يهدأ له بال، ينتقل من مكان إلى آخر مستطلعا ومستكشفا، ويلتهم



الصحف والمجلات صباح مساء، مستمتعا بكل ما في المدينة، وما في أرجاء وطنه. فقد كان يتوق بلهفة وشوق إلى معرفة كل شيء عنه، منتهزا مدة إجازته السنوية.

ها هو ذا بلده قد تغيرت أوضاعه، وتحولت فيه نظم العيش وأساليب الحياة رأسا على عقب، وتبدلت بنياته التحتية إلى الأحسن، وضُخَّت في جسده دماءٌ جديدة طاهرة ونقية، أعادت إليه الحياة من جديد،